## الفصل التاسع

# عصر الأسلحة النارية وتجارة الرقيق من الكونغو إلى زمبيزي

عندما اكتشف البرتغاليون الكونغو عام ١٤٨٣، وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع دولة من الدول الكبرى القليلة التي تقع جنوبي الصحراء الكبرى وكانت هذه الدولة هي (باكونغو) وملكهم (مانيكونغو) وعاصمته (مبانزا كونغو) وهي الآن سان سلفادور في أنجولا. ومنشيء دولة باكونغو– كما يقال– كان حدادًا ماهرًا. ولهذا فإن الشعب يمتاز بمهارة الصيد كما يمتاز بأنه محارب عظيم؛ ولهذا أيضًا يكرم الحدادون ويميزون على غيرهم.

قُدِّر تعداد تلك الدولة بمليونين ونصف ويقع في خارج الكونغو ولايات تابعة لها يعين لها الحكام. ولكن نظرًا لبعد تلك الولايات عن القوى المركزية للدولة، فقد أعلن الحكام استقلالهم في حين ظلوا يعترفون من الناحية الشكلية فقط بزعامة (مانيكونغو)، وأهم تلك الولايات (نجويو) و(كاكونغو) و(لوانجو) على ساحل الأطلنطي شمالي الكونغو، وتكون تلك الولايات مع ماتامبا على امتداد نهر كوانجو سميت في العصر الحديث أنجولا.

وقد ركز البرتغاليون فيما بين نهاية القرن الخامس عشر وأواخر القرن السادس عشر مجهوداتهم في الكونغو دون أنجولا وأعادوا بناء المدينة

بالحجارة وذهب بعض الشباب الكونغولي إلى أوروبا للتعليم.

وقد اعتلى العرش أحدهم ويُسمى نزينجا مبمبا ثم تسمى باسم الفونسو سنة ١٥٠٧ وحكم حتى سنة ١٥٤٣. وقد حاول هذا الملك أن يجعل بلاده قطعة من أوروبا، لكنه لم ينجح في ذلك ثم سرعان ما قضت تجارة الرقيق على آمال البرتغاليين بإنشاء دولة مسيحية وتحولوا إلى تجار رقيق. إذ انتشرت تجارة الرقيق في الكونغو كما انتشرت في بقاع غيرها من أفريقيا. وعلى الرغم من أن الفونسو أعلن كراهيته للرقيق، فإنه كان يتبادل التجارة مع الأوروبيين بالرقيق وازدادت حاجة البرتغاليين للأيدي العاملة في مستعمراتهم بأمريكا فأقبلوا على الرقيق الأفريقي.

ثم جاء باولو دياز دي نوفايز في سنة ١٥٧٥ ليبدأ عهدًا جديدًا؛ فاتخذ من (لواندا) قاعدة له ليشن منها حروبًا متصلة ليضمن اتصال المدد من الرقيق، وبذلك أصبحت دولة الكونغو هدفًا لهذا الغرض لدرجة مفزعة، فوجه المانيكونغو نداءً محزنًا إلى المجمع المقدس عن طريق إرساليات التبشير وتدخل بعض البابوات وأرسلوا خطابات من روما إلى لشبونة. لكن الحكومة البرتغالية أعلنت أنها عاجزة عن السيطرة على رعاياها في أنجولا؛ مما اضطر الباكونغو إلى إعلانها حرب على البرتغاليين ولكن كانت النتائج وخيمة؛ إذ لم يستطع الباكونغو محاربة البرتغاليين وحلفائهم وخرج المانيكونغو من تلك المعارك مثخنًا بالجراح وبحالة من الضعف فلم يقدر على حفظ الوحدة الداخلية لدولته وتشتت شملها.

ولما كان أول هدف للاستعمار البرتغالي هو الحصول على الرقيق،

فقد لجأوا لكل الوسائل لتحقيق هذا الهدف وفي سبيل ذلك قامت الحروب وما تبعه من تخريب.

بقيت أنجولا قاعدة لإمداد البرازيل بالرقيق ثم ظهرت أسرة قوية تسمى باسم مواتا ياموفو الذين كانوا يتاجرون في بادئ الأمر مع البرتغاليين وحصلوا على الأسلحة النارية والذخيرة والأقمشة وبعض الكماليات. وقامت تلك الدولة على التجارة في منطقة كازيميزو سرعان ما صدروا العاج إلى محطات البرتغاليين في زمبيزى، ويمكن القول إن النفوذ البرتغالي امتد من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي لأفريقيا.

لم تطب الإقامة للبرتغاليين في جنوبي أنجولا أو في رأس الرجاء الصالح، وكان يطلق عليه في ذلك الوقت رأس الأعاصير. ولهذا لم يهتم البرتغاليون باستعماره ولم يفكر أحد في استعمار رأس الرجاء إلا في منتصف القرن السابع عشر عندما نجح الهولنديون في الإبحار معتمدين على الرياح التجارية وبذلك جابوا البحار من جنوبي المحيط الأطلنطي والمحيط الهندي، وعندئذ ظهرت أهمية رأس الرجاء الصالح إذ يقع في منتصف الطريق ولذا اتخذ قاعدة بحرية في حين كان رأس الرجاء بالنسبة للبرتغاليين عقبة في طريقهم من موزامبيق إلى جوا؛ إذ كانت مسرحًا لحطام المراكب التي تفاجئها الأعاصير هناك.

إن أغلب المعلومات التي وصلت إلينا عن جنوب أفريقيا جاءت على لسان البرتغاليين الذين نجوا من الموت عندما تحطمت سفنهم ووصلوا إلى الشاطئ واخترقوا ترانسكي وبوندولاند وناتال وجنوب موزمبيق. تلك

المعلومات تفيد بأن قبائل هوتنتوت وبوشمن واكسهوساس وتمبوس وبوندوس ونجوني كانت تسكن تلك المناطق وهم أصل قبائل الزولو الذين قضت حرب البوير– من عام ١٨٣٠ إلى ١٨٤٠– على سلالتهم. وقبل أن يقيم الرجل الأبيض هناك بوقت طويل، كانت قبائل الباتتو تعيش في المناطق التي يلائم جوها وأمطارها لإنبات بعض الزراعة.

وكانت قبائل الهزتنتوت ورجال الغابات جيران المستعمرة الهولندية عندما قامت في رأس الرجاء الصالح سنة ١٦٥٢ لتمد المراكب بالمؤن والماء، ولم تبدأ تلك المستعمرة في التوسع والازدياد قبل قرن من الزمان عندما هاجموا قبائل البانتو بالقرب من نهر فيش الذي يبعد حوالي خمسمائة ميل شرقًا عن مدينة رأس الرجاء.

بدأ الاتصال بين البيض والسود بعيدًا عن الكونغو وأنجولا في منطقة زمبيزي عندما استولى البرتغاليون– كما رأينا– على تجارة الذهب والعاج في الساحل الشرقي فاستولوا على سوفالا في بدء القرن السادس عشر عندما تيقنوا بأن القارة تسيطر عليها قبيلة فاكارانجا إحدى فروع شونا في جنوبي روديسيا، وكان زعيمهم يلقب بمونوماتابا.

وكانت العاصمة في ذلك الوقت تقع على بعد مائة ميل تقريبًا شمالًا من سالسبوري للآن، وعلى الحافة الشمالية لجنوبي روديسيا، حيث تأخذ الأرض في الانحدار إلى وادي زمبيزى، وعلى ذلك فإن هذه العاصمة كانت تبعد مائتي ميل شمالًا من منطقة الذهب وقد زحفت قبائل فاكارانجا نحو الشمال بقيادة أسرة مونوماتابا، وكانت مباني القرية الملكية من الحجر إذ

أن أسرة مونوماتابا هي سلالة الذين كانوا يعيشون في مبان حجرية والتي جمعها علماء الآثار إلى عصر من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر.

شغلت المونوماتابا مساحة واسعة بعد ما زحفت صوب الشمال إلى زمبيزي. بلغ طول وادي زمبيزى الذي حكموه ما يقرب من سبعمائة ميل، فقد حكموا الجزأين الشمالي والشرقي من روديسيا الجنوبية والأراضي المنخفضة من جنوبي موزمبيق بين زمبيزى ولمبوبو. وفي نهاية القرن السادس عشر ومع بداية القرن السابع عشر، ظهرت دولة منافسة تحكمها أسرة شانجامير في المنطقة بين زمبابوي الكبي وبولاواي ولم يستطع البرتغاليون دخول هذه المنطقة في حين كانوا على اتصال بمونوماتابا في الشمال حيث أحدثوا التطور في المباني الحجرية واشتركت شانجامير في تجارة خارجية مع البرتغاليين بطريقة غير مباشرة في الأسواق التي كانت تعقدها مونوماتابا مع دولة لوندا.

وكانت خطوة البرتغاليين التالية صوب زمبيزي هو القضاء على التجار العرب، وخاصة تجار المناطق الساحلية التي كانت تقع تحت حكم مونوماتابا.

وكانت أول إرسالية تبشيرية ترسلها البرتغال هي جونزالو دي سيلفيرا حيث قامت بتعمير المونوماتابا ولكنها قلت بناء على نصيحة من مستشاري الملك. ثم دخل المونوماتابا مع البرتغاليين في معاهدات واتفاقيات وذلك بعد خمس عشرة سنة من رحلات اكتشافية عسكرية

وقويت هذه العلاقات عندما استعانت المونوماتابا بالبرتغاليين على قوى شانجامير الناهضة. وفي سنة ١٦٩٢ أعلن مافورا زعيم المونوماتابا أنه عبد برتغالي وبذلك أعلن انتهاء دولته وأقامت البرتغال نظامًا خاصًّا بها لتجارة الرقيق واستطاعت شانجامير في حملة استمرت من عام ١٦٩٣ إلى عام ١٦٩٥ أن تطرد المونوماتابا وأسيادهم البرتغاليين من الأرض وانحصر حكم المونوماتابا في جزء ضئيل من واديهم السابق بين تيت وزمبو كدمية في يد البرتغاليين.

وانتهت دولة شانجامير خلال القرن التاسع شعر عندما هاجرت قبائل الزولو المحاربين وكان البرتغاليون يستخدمون مجرميهم لتحريض المواطنين لمحاربة بعضهم البعض وذلك لمصلحتهم في سوق العبيد لتصديرهم إلى البرازيل، ولما كانت موزمبيق تعتمد على الذهب أكثر من اعتمادها على تجارة الرقيق فقد حقنت فيها الدماء.